بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# السُّنَنُ الرَّبَّانِيَّة




إخْوَةَ العَقيدَةِ ورُفَقَاءَ الدَّرْبِ، السَّلامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُه؛ **أَمَّا بعدُ:**

فإنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ هذا الكَوْنَ، وجَعَلَهُ يَسيرُ وَفْقَ قَوانينَ ثابِتَةٍ، وسُنَنٍ لا تَتبَدَّلُ ولا تَتَغَيَّرُ، وقد أَرْشَدَ القُرْآنُ الكَريمُ إلى هذه السُّنَنِ: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: 137]، ﴿**فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ [غافر: 85].

ونبَّهَنا اللهُ ﷻ أنَّ هذه **السُّنَنَ صارِمَةٌ تَتَّسِمُ بالاطِّرادِ** والشُّمُولِ والثَّباتِ ﴿**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**﴾ [فاطر: 43].

**وهذهِ السُّنَنُ لا تُحابِي ولا تُجامِلُ أَحَدًا** فهي لا تَمِيلُ مع الأَماني وإنَّما تَتَأَثَّرُ بالأعمالِ الجَيِّدَةِ والجهودِ المُنَظَّمَةِ فَلَيْسَ مُجَرَّدُ كَوْنِنا مُجاهِدينَ يُعَدُّ شافعًا لنا لِخَرْقِ هذه السُّنَن، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: 123].

**هذهِ السُّنَنُ مُرْتَبِطَةٌ بالأَمْرِ** والنَّهْي، والطاعَةِ والمَعْصِيَة، والإيمانِ والكُفْرِ فَمَنْ أَتَى بالأَمْرِ واجْتَنَبَ النَّهْيَ وَوَقَفَ عندَ حُدُودِ اللهِ أَصابَهُ خَيْرُ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّة، ومَنْ أَهْمَلَ الأَمْرَ وارْتَكَبَ المَنْهِيَّ عنه وَوَقَعَ في حُدودِ اللهِ أَصابَهُ شَرُّ السُّنَنِ الرَّبانِيَّة.

**إنَّ سُنَّةَ الله مَضَتْ أنْ يَكُونَ أَعْداءُ اللهِ على مَرِّ العُصورِ** أَكْثَرَ عَدَدًا، وأَعْظَمَ عُدَّةً مِنَ المسلمين ابْتِلاءً مِنَ اللهِ لعبادِه وَأَوْليائِه؛ حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ النَّصْرَ ليسَ بأيديهم وإنَّما هو مَحْضُ تَفَضُّلٍ مِنَ اللهِ عَلَيْهِم ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [آل عمران: 126] فَيَدْفَعُهُم إلى الرَّغْبَةِ إليه والتَّوَكُّلِ عليه في قِتالِهِمْ لأَعْدائِهم.

**إذا عُلِمَ هذا؛ فإنَّ سُنَّةَ اللهِ جَرَتْ أَنَّ النَّصْرَ والتَّمْكينَ** والاسْتِخلافَ في الأرضِ إنَّما يَكُونُ لعبادِ اللهِ الصالحينَ العابدينَ، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء: 105، 106].

**فلا بُدَّ للجَماعَةِ التي تَرُومُ إقامَةَ دَوْلَةِ الإسْلامِ** أنْ يَتَمَتَّعَ أَفْرادُها بالصَّلاحِ في أَقْوالِهِمْ ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [الأحزاب: 70، 71] فَيُنَزِّهُوا أَنْفُسَهُم عنِ القِيْلِ والقال، واللَّغْوِ في المَقال، ويَتَجَنَّبُوا سَفاسِفَ الأُمُورِ، ويَأْخُذُوا هذا الأَمْرَ بِقُوَّة.

**إنَّ أصْحابَ النبيِّ ﷺ تَمازَحُوا وتَضاحَكُوا** فَعاتَبَهُمُ اللهُ بقوله: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الحديد: 16]، قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ما كانَ بين إسْلامِنا وبينَ أَنْ عاتَبَنا اللهُ بهذِهِ إلَّا أَرْبَعُ سِنينَ»(1).

**إنَّ هذا العِتابَ ليسَ لأنَّ المُزاحَ والضَّحِكَ مُحَرَّمٌ** في دينِ الله تعالى، ولكنَّ هذهِ الفِئَةَ التي أَخَذَتْ على عاتِقِها حَمْلَ رايَةِ الدِّين وَرَفْعَ لِوائِه لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حالُها كَحالِ عامَّةِ النَّاسِ وبَقِيَّةِ الخَلْق.

**ولا بُدَّ مِنَ الصَّلاحِ في أَعْمالِهِمْ** بأنْ تَكونَ وَفْقَ مَنْهَجِ اللهِ وشَرْعِه فَضوابِطُ الشَّرْعِ تَحْكُمُهُم فلا اتِّباعَ للأَهْواءِ، ولا تَقْديمَ للمَصالحِ المزعُومَةِ على أَمْرِ اللهِ وحُكْمِهِ.

**وأمَّا العبادَةُ فهيَ سِلاحُهُمُ الذي به يُحارِبُون، وجُنَّتُهُمُ التي بها يَحْتَمُون،** والحديثُ عن هذهِ الخَصْلَةِ ذُو شُجُون.

إنَّ أَعْظَمَ زادٍ يَتَزَوَّدُه مَنْ يريدُ حَمْلَ هَمَّ هذا الدِّين والقيامَ بأعبائِه هو زادُ تَوْثيقِ الصِّلَةِ باللهِ سبحانه وتعالى، والتَّقَرُّبِ إليه، ومُناجاتِهِ في أَرْجَى ساعاتِ المناجاةِ في ساعاتِ السَّحَر.

**إنَّ اللهَ سُبْحانَه عندَما أرادَ مِنَ النبيِّ ﷺ القيامَ بأعْباءِ هذا الدِّينِ** أَنْزَلَ عَلَيْه: ﴿**يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [المزمل: 1، 2]، قالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: «إنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ قيامَ اللَّيلِ في

(1) أخرجه مسلم (4/ 2319) برقم: (3027).

أَوَّلِ هذه السُّورَةِ، فقام رسولُ الله ﷺ وأصحابُه حَوْلًا، حَتَّى انْتَفَخَتْ أَقْدامُهُم، وأَمْسَكَ اللهُ خاتِمَتَها في السَّماءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ التَّخْفِيفَ في آخِرِ هذه السُّورَة»[2].

**إنَّه الامْتِحانُ في هَجْرِ الفِراشِ،** وتَرْكِ مَأْلُوفاتِ النَّفْسِ مِنَ الرَّاحَةِ والدَّعَة، إنَّها تَرْبِيَةُ الْمُجاهَدَةِ لِمَنْ يُريدُ حَمْلَ رسالَةِ الإسلام وتَبْليغِها للعالَمين، وبغَيْرِ هذا الزَّادِ لا يُمْكِنُ للعَبْدِ أنْ يَسْتَمِرَّ في هذا السَّبيل ولا سِيَّما مَعَ تَعاقُبِ الفِتَنِ، وتَوالِي الابتلاءاتِ، وكَثْرَةِ المخالفينَ، وقِلَّةِ الناصِرين.

**إنَّه ارتباطُ القَلْبِ بخالِقِهِ ومَوْلاهُ،** هذهِ الصِّلَةُ هي صَمَّامُ الأمانِ في أَلَّا يُوكَلَ العَبْدُ إلى نَفْسِه في جِهادِهِ لأعداءِ الله فإنَّه متى وُكِلَ إلى نَفْسِه هَلَكَ وتَسَلَّطَ عَلَيْه عَدُوُّه.

**إنَّه لما اشْتَدَّ أذى فرعونَ على مُوسى عليه السلام وقَوْمِه** أَرْشَدَ اللهُ كَلِيمَهُ وأخاه هارونَ إلى ما يُعِينُ على تَحَمُّلِ هذا الأذى ويَرْفَعُه، فقال: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: 87] إنَّه دَواءُ الخَبيرِ بهذهِ النُّفُوسِ وخالِقِها: العبادةُ والالتجاءُ إلى اللهِ تعالى في رَفْعِ هذا الظُّلْمِ، والتَّوكُّلُ عليهِ في إهْلاكِ العَدُوِّ.

**إنَّ اللهَ سُبْحانَه لَطيفٌ بعبادِه، يَزِيدُ اللُّطْفَ في عُبَّادِه،** ومِنْ لُطْفِه سُبْحانَه بِهِمْ ورِعايَتِهِ لَهُمْ: أنَّه إذا ما رَأَى مِنْهُم رُكُونًا واطْمِئْنانًا إلى ما يَمْتَلِكُونَه مِنَ الأسبابِ المادِيَّة في حَرْبِهِمْ مع عَدُوِّهم، ونَقْصًا في تَوَكُّلِ قُلُوبِهِمْ عليه، ابْتَلاهُم بِنَوْعِ ابْتِلاءٍ تَرْبِيَةً لَهُمْ وتَأديبًا لِيُهْرَعُوا إلى الإنابَةِ إليه والتَّوَكُّلِ عَلَيه.

(2) أخرجه مسلم (1/ 513) برقم: (746).

**إنَّ ما حَداني لِتَسْطِير هذه الكَلِماتِ أَنِّي قد لَمَسْتُ** في نُفُوسِ بَعْضِنا -وما أُبَرِّئُ نَفْسِي- تَقْصيرًا في الأَخْذِ بهذهِ السُّنَنِ الرَّبانِيَّة، ورُكونًا إلى ما بينَ أيدينا مِنْ أسبابٍ مادِيَّة، وتَساهُلًا في النَّواحِي الأَمْنِيَّة بلْ إنَّ بَعْضَنا لَرُبَّما يُقْدِمُ على الأَمْرِ الجَلَل، وتُراهُ آمِنَ القَلْبِ، مُطْمَئِنَّ النَّفْسِ غَيْرِ وَجِلٍ، ولا تَجِدُ في نَفْسِه اسْتِشْعارَ مَعاني: (التَّوَكُّل، الاسْتِعانَة، الإنابَة، الرَّغْبَة، الرَّهْبَة...) فابْتَلانا اللهُ - وهُوَ الرَّحيمُ بنا- بِما تَرَوْنَهُ وتَلْمَسُونَه مِنْ أنواعِ الكُروبِ والابتلاءات حَتَّى أَضْحَى حالُنا لَيَنْطَبِقُ عليه قَوْلُه تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ**﴾ [الأنفال: 26].

**فاللهَ اللهَ إِخْوَتي، هَلْ مِنْ رَجْعَةٍ صادِقَةٍ إلى دينِ اللهِ،** وتَحَمُّلٍ للمسؤوليَّةِ المُلْقاةِ على عاتِقِنا، وأَخْذٍ لهذا الأَمْرِ بِحَزْمٍ وقُوَّة، ﴿**يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾ [مريم: 12]، وحِرْصٍ على أَلَّا يُؤْتَى الدِّيْنُ مِنْ قِبَلِنا.

اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ تَقْصِيرنا في حَمْدِك، سُبْحانَك سُبْحانَك ما عَبَدْناكَ حَقَّ عبادَتِك، وما قَدَرْناكَ حَقَّ قَدْرِك، اللّهم بَصِّرْنا بِسُنَنِكَ، وارْزُقْنا الأَخْذَ بها، اللَّهُمَّ آتِنَا فَهْمًا في كِتابِكَ وفي سُنَّةِ نَبِيِّكَ إنَّكَ سَميعٌ مُجيب.

**وكتبه:**

**ميسرة الغريب**

*******

1441 هـ | 2020 م

الأرشيف الجامع